صدى ثورة التحرير في الروائية الجزائرية
(بعث الوعي الوطني وتفصيل المشاهد)

د/ وذنـاني بوداود
جامعة عمار ثليجي الأغواط

تمهيد :

فالذي يطلع على الرواية الجزائرية يلاحظ بأن هناك قضايا كثيرة قد تم تناولها من طرف الكتاب الجزائريين في أعمالهم السردية المتنوعة، ومن وجهات نظر مختلفة ـــ وإن كان الكل ركز على الجانب البطولي للشعب الجزائري إلى درجة المبالغة في ذلك .والقصد من وراء ذلك كله إظهار قوة الشعب الجزائري وتماسكه، وبأنه شعب قادر على تحقيق النصر مهما كان طغيان الآخر وجبروته وقوته وهي حقيقة تؤكدها النصوص الروائية الجزائرية التي تناولت الثورة . حيث ركزت على تسجيل بطولات الأمة الجزائرية ومآثرها من أجل نقلها للأجيال اللاحقة . وهو عمل يظهر مدى فهم الروائي الجزائري لدور الأدب الثوري في صقل الشخصية الوطنية . فالروايات التي تناولت الثورة، في تلك المرحلة وإن كانت خطابات تخيلية فإنها تروم تأسيس علاقة مع التاريخ دون أن تكون تاريخا، وإن كانت تحمل ومضات منه . فهي تحيل على زمن قد مضى تتجلى فيه أحداث ثورة الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي . وبذلك اكتسبت أهميتها لأنها تعالج قضايا هامة وجوهرية ألا وهي قضية الكفاح المسلح من أجل الحرية والاستقلال . وهو عمل يدخل في دائرة ما يسمى بالتوثيق الفني للثورة .ويجسد فكرة النضال الثوري في لا وعي النص الأدبي .

الرواية الجزائرية والوعي التاريخي :

ظهرت الرواية الجزائرية في لحظة وعي الأنا الوطني بحقيقة وجوده في هذا الكون، بعد أن تخلص من الاستعمار الفرنسي الذي حاول قهره واستعباده ومصادرة حريته والقضاء على هويته . فكانت لحظة استرجاع السيادة الوطنية، واستعادة الهوية الوطنية، ولحظة الانطلاق لتصحيح تاريخه الذي شوهه الاستدمار الفرنسي في فترة هيمنته على البلاد والعباد . وبذلك بقي الخطاب الروائي مشدودا إلى تاريخ المقاومة منذ نشأته الأولى وإلى اليوم بحيث نجد معظم النصوص الروائية الجزائرية قد قدمت بطريقة أو بأخرى مشهدا، أو مشاهد لها علاقة بمقاومة الشعب الجزائري . لأن الأنا الوطني أدرك بأن إعادة تصحيح المسار التاريخي يحتاج إلى وعي بحقيقة ما حدث، كما يحتاج إلى فهم حقيقي للهوية الوطنية حتى لا ينزلق وراء مخططات العدو الرامية إلى ترسيخ ثقافته وهيمنته .

فالأنا الوطني الذي عاصر لحظة الانتقال من عهد الاستعمار إلى عهد الاستقلال كان يدرك حقيقة ما جرى أيام المقاومة والثورة، ويعرف جيدا الثمن الذي قدمه أبناء هذا الشعب مقابل نيل حريته واستقلاله . ولعل الحماس

الذي كان يهز مشاعر المثقفين الجزائريين في الأيام الأولى للاستقلال هو الذي كان وراء حضور الثورة في الخطاب الروائي الجزائري، وإن كان ذلك الحضور يتفاوت من كاتب إلى آخر .

فكان أن بدأ وعي الأنا الوطني يتحسس حقيقة تاريخ مقاومته بداية من ظهور أول خطاب روائي جزائري رواية عبد الحميد بن هدوقة [ريح الجنوب] بحيث أننا نجد كل النصوص التأسيسية الأولى قد تناولت ثورة التحرير بطريقة أو بأخرى كل حسب مواقفه منها ومن نتائجها . والمتتبع للرواية الجزائرية منذ نشأتها وإلى اليوم، يلاحظ مدى حرص الروائي الجزائري على أن تكون الثورة حاضرة في كتاباته وإن كان ما كتب جاء دون المستوى المطلوب.

إستراتيجية الأنا الوطني ومحطات تاريخ المقاومة:

لكل كاتب إستراتيجية ينطلق منها أثناء الكتابة، وللأنا الوطني إستراتيجيته أثناء تناوله لمقاومة الأجداد، وثورة الآباء، وهي إستراتيجية تتأسس على :

1 ـــــــ تفعيل أحداث المقاومة، بحيث يتجلى فعل الشعب الجزائري من خلالها في صورة المنتصر .

2 ـــــــ تقزيم دور الآخر العدو وتفنيد إدعاءاته، بحيث يظهر في صورة المنهزم .

3 ـــــ تمجيد بطولة المجاهدين، وإضفاء هالة من التقديس على الشهداء .

وقد جسد تلك الإستراتيجية في مجموعة من مشاهد المقاومة من أبرزها : مشاهد المعارك ومشاهد السجون والتعذيب، حيث جاءت النصوص الروائية التي تناولت المقاومة أو الثورة محملة بتمجيد الفعل الجهادي، فأعطت صورة عن بطولات الشعب الجزائري، وصلابة مقاومته، وتضحياته وصبره في مواجهة المحن والشدائد . كما جاءت كذلك صورة للمقاومة أو الثورة مكللة بالانتصارات، وبالفعل الإنساني العظيم الذي يخلده التاريخ، وتعتز به الأجيال اللاحقة .

ونظرا لأن الرواية الجزائرية قد ظهرت بعد الاستقلال فقد انصب اهتمامها على أحداث ثورة التحرير أكثر من المقاومات السابقة لها، وإن كانت قد أشارات إلى بعض المقاومات الشعبية، ولكن ومع ظهور رواية [كتاب الأمير – مسالك أبواب الحديد–] لوسيني الأعرج سنة 2004 بدأت الرواية الجزائرية تنفتح على تاريخ المقاومات الشعبية الوطنية، محاولة رصدها فنيا، وهو ما يدل دلالة واضحة على وعي الأنا الوطني بهويته، كما يعطي الدليل على أن الحكم الاستعماري الذي دام أكثر من قرن لم يستطيع محو هوية هذا الشعب، رغم كل المحاولات العديدة، والوسائل الجهنمية التي استعملها لتحقيق أغراضه . فقد حاول كاتب رواية [كتاب الأمير] رصد مسار المقاومة الجهادية الأولى، من مبايعة الأمير عبد القادر وإلى لحظة دخوله سجن لمبواز بفرنسا . **بحيث توقف النص عند محطات تاريخية كثيرة قصد بعث نبضها التاريخي من جديد فنيا** . كما عمل الأنا الوطني لحظة فعل الكتابة على بعث جوانب من

تاريخ المقاومة سكت عنه المؤرخون . وهو ما يدل على أن الأنا الكاتبة كانت واعية لحظة الكتابة، بما حدث في بداية الاحتلال من صدام عنيف بين حضارتين وهويتين مختلفتين، لذا جاء النص مشبعا بمشاهد الجهاد والمواقف البطولية الإنسانية التي تشرف الأنا الوطني .وأثبت بأن المستعمر مهما كان (حضاريا فسيظل استعماريا يستهدف تذليل الشعب وتركيعه) [1] . كما كشف النص الروائي عن همجية الاستدمار الفرنسي وما كان يقوم به جنوده من قتل وتعذيب للأبرياء . وهو ما يجعلنا نذهب إلى أن رواية [كتاب الأمير] هي رواية مقاومة، لأنها خصصت مساحة كبيرة للمقاومة ولا نجد مثيلا لها في الرواية الجزائرية. فهي بحق الرواية الوحيدة التي تتحدث عن بداية مقاومة الشعب الجزائري للغزو الفرنسي .

وقد جسد الكاتب صورة مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي من خلال شخصية الأمير عبد القادر، وما قام به من دور في دحر الجيوش الفرنسية الغازية . فالكاتب وإن كان لم يعاصر أحداث تلك المقاومة إلا أنه استطاع أن يستفيد من بعض ما كتب عنها . ومضمون الرواية يكشف عن رؤية الكاتب وموقفه مما حدث أثناء تلك المقاومة .

ومهما كانت مواقف الكاتب فإن الرواية قد روت بعض أحداث المقاومة ودور القبائل التي ساهمت فيها، والقبائل التي تعاونت مع الاستدمار الفرنسي، وإن كانت أضفت على بطولة بعض الأشخاص هالة من الأسطورة والمبالغة . وقد حاول الكاتب من خلال نصه [كتاب الأمير] أن يؤرخ فنيا لفترة هامة في تاريخ الأمة الجزائرية فترة بقيت أحداثها مكدسة في بطون كتب التاريخ . وبذلك يكون وسيني الأعرج قد فتح بابا فنيا على أحداث مقاومات الشعب الجزائري التي سبقت ثورة التحرير . ولعل في المستقبل سنجد من يتناول باقي المقاومات في أعمال روائية . وإن كانت (الوقائع التاريخية المنجزة عبر حقبة النضال الجزائري ضد الغزاة ... لا تدخل ضمن منطقية سهلة الاستيعاب من أول وهلة، .... ومن هذا المنظور يمكن القول بأن متن [كتاب الأمير] ساهم بشكل جمالي جاد في قراءة تلك الوقائع بمقصد جمالي ووفق رؤية تمزج بين الثبوتية والاحتمال، مما يدفع بالقارئ إلى الاعتقاد في ضرورة تهميش الفعل العسكري وإثبات بدله الفعل " الوعي " ليقر في الأخير بأن " الأمير " انهزم في الحرب لكنه انتصر في صنع وعي كان منعدما قبل ذلك .) [2] .

وإذا كان هذا هو حظ المقاومات التي سبقت ثورة التحرير من النصوص الروائية، فإن حظ الثورة كان أكبر نظرا لقرب ظهور الرواية الجزائرية من أيام الثورة، ونظرا كذلك لمعاصرة الروائيين لرجالات الثورة . لذلك بقي تأثيرها كبيرا في المخيلة الجماعية فانعكس ذلك في الأعمال الإبداعية .

تجليات ثورة التحرير في الخطاب الروائي الجزائري :

الحديث عن الثورة معناه الحديث عن ماضي هذه الأمة ،وما تعرضت له من أحداث في مسارات تاريخها المعاصر، وما قدمته من تضحيات جسام من أجل نيل حريتها . ومن هنا فتناول الرواية للثورة معناه الوقوف على بعض محطات تاريخ الأمة الجزائرية . وإذا كانت الرواية الجزائرية لم تعاصر الثورة كما عاصرها الشعر، فإذا كان

الشعر قد رافق ثورة التحرير وسجل بطولات المجاهدين، فإن الرواية الجزائرية، وإن كان ظهورها جاء متأخرا – أي سنة 1970 ولهذا التاريخ أهميته في حياة المجتمع الجزائري ، فهو تاريخ يصادف نشوة الانتصار على الآخر المستعمر – فإنها قد خصصت حيزا كبيرا للثورة وأحداثها، وبطولات المجاهدين، وجرائم جيش الاستعمار الفرنسي . لذا جاءت تلك الروايات تحمل هم الإنسان الجزائري أيام مقاومته للاستدمار الفرنسي، وتشيد ببطولاته وأفعاله الثورية والإنسانية .و من ذلك اكتسبت أهميتها لأنها تعالج قضايا هامة وجوهرية ألا وهي قضية الكفاح المسلح من أجل الحرية والاستقلال . وهو عمل يدخل في دائرة ما يسمى بالتوثيق الفني للثورة ، ولا يعني ذلك أن الأعمال الروائية قد كرست مضامينها للثورة، بل كانت الثورة من بين اهتمامات الكتاب، لذلك لا نجد رواية من بين الروايات التي تناولت الثورة قد خصصت مضمونها كاملا للثورة، وإنما جاءت أحداث الثورة في ثنايا النص .فإنها ومع بداية ظهورها استطاعت أن تنقل للمتلقي الكثير من أحداثها . ولهذا فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : كيف تعامل الخطاب الروائي الجزائري مع أحداث الثورة فنيا، وهل وفق في ذلك ؟

إذا كان الكل يعلم أن الرواية الجزائرية قد ظهرت متأخرة أي بعد الاستقلال بسنوات، فإنه سيعلم كذلك بأنها قد ولدت شديدة الارتباط بأحداث ثورة التحرير، فطيفها لم يفارق الكثير من النصوص الروائية الجزائرية، وإن اختلف كتابها في التعامل معها، كل حسب أيديولوجيته التي يؤمن بها .

كما أنه لا يمكننا أن ننسى من جهة أخرى، أن التأسيس الفعلي للرواية الجزائرية قد صادف تغيرات اجتماعية وثقافية جذرية أفرزتها مرحلة ما بعد رحيل الاستعمار، فترة ساد فيها التوجه الاشتراكي مما جعل النصوص الروائية التأسيسية الأولى تغرق في الهم الاجتماعي والصراعات الأيديولوجية التي عرفتها الثورة بين التيار الوطني المتمسك بالقيم العربية الإسلامية، والتيار المتشبع بالفكر الغربي والفكر الماركسي وهي مرحلة صعبة . وإذا كانت نظرة الروائيين الجزائريين للثورة تختلف من كاتب إلى آخر، فلا يعني ذلك أن منهم من يشكك في جهاد رجالاتها أو نزاهتهم، أو يحاول تشويه انتصاراتها، ولكن الكل يتفق على عظمتها وتمجيد بطولة رجالاتها . وكل ذلك راجع لأن الواقع الاجتماعي في الجزائر بعد اندحار الاستدمار الفرنسي، كان يحتم على المبدع أن يلتفت إلى تلك الملحمة التي كتبها الشعب الجزائري بدماء أبنائه أثناء ثورة التحرير، فكان حضور الثورة كثيفا في روايات التأسيس الأولى . وقد ساعد تبني الاتجاه الواقعي من طرف الروائي الجزائري، في مقاربة الوقائع التاريخية، وهو ما جعل النص الروائي، يرتبط بالواقع خارج نصي، أكثر من الجمالية النصية . وهدف المبدع من تلك الإستراتيجية هو توثيق الأحداث التاريخية للثورة، بمعنى نقل حقائق ثابتة عن مقاومة هذا الشعب من أجل إقناع المتلقي بما حدث .

فقد تناولت الرواية الجزائرية قضايا كثيرة لها صلة بالثورة، ومن وجهات نظر مختلفة ـــ وإن كان البعض من الروائيين قد ركزوا على الجانب البطولي للشعب الجزائري إلى درجة المبالغة في ذلك . وقصدهم من وراء ذلك كله إظهار قوة الشعب الجزائري وتماسكه، وبأنه شعب قادر على تحقيق ما يريد دون خوف من طغيان الآخر وجبروته

وقوته . فقد اكتسبت ثورة التحرير بأحداثها المتلاحقة (صفة المرجعية الأساسية في بنية الحدث الروائي وفضاءاته المتداخلة)[3] وهي حقيقة تؤكدها النصوص الروائية الجزائرية التي تناولت الثورة .

فالذي يطلع على روايات مرحلة التأسيس الروائي في النثر الجزائري يلاحظ مدى ارتباط تلك الروايات بفترة الثورة، حيث كان التركز على تسجيل بطولات الأمة الجزائرية ومآثرها من أجل نقلها للأجيال اللاحقة، ومن جهة أخرى تعميق الوعي بالهوية الوطنية ، وهو عمل يظهر مدى تفهم الروائي الجزائري لدور الأدب الثوري في صقل الشخصية الوطنية، وبعث روح النزعة الوطنية في نفوس الأجيال اللاحقة . فروايات تلك المرحلة وإن كانت خطابات تخييلية، إلا أنها كانت تروم تأسيس علاقة مع التاريخ دون أن تكون تاريخا، وإن كانت تحمل ومضاته . فهي تحيل على زمن قد مضى تتجلى فيه أحداث ثورة الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي، مما جعل الفكرة القابعة في لا وعي النص، لا تخرج عن النضال الثوري، بصورة أو بأخرى .

ومن هنا يمكننا القول بأنه كلما ارتبط النص الأدبي بقيم نبيلة تخدم الإنسانية، كلما حفر في مجرى التاريخ لوحة للدلالة على تلك القيم النبيلة، وبذلك ضمن لها البقاء، وأبعد عنها الفناء والاندثار، فلا يتجاوزها الزمن وإن ضن البعض ذلك، فقد تبقى الأحداث نابضة بالحياة تشهد على أن هناك حقائق لا تزال حية تفرض حضورها على المتلقي . وبما أن الروايات التي لها صلة بالثورة هي روايات لها علاقة بالتاريخ وبالهوية ، فإن ذلك سيجرنا إلى الحديث عن علاقة الرواية كتخييل فني، بالتاريخ وأحداثه .

ومن هنا فصرامة التاريخ تحتم على الكاتب أن يتجاوز مواقف شخصياته بحيث يودعها معارف قد تكون أكبر منها . فـــ(ليست الكتابة الروائية عند الروائيين عملية تتم دون خطورة ، وهاته الخطورة تأتي من جهة التاريخ ، الذي تتصرف فيه كمادة ، ومن جهة الرواية ذاتها، والتي تتخيل المادة التاريخية، وما تصنعه الرواية هنا هو تعصير الماضي)[4] لذا فتواصل الروائي مع التاريخ لا يتم بسهولة نظرا لصرامة التاريخ وخطورته ، الأمر الذي يحتم على الروائي أن يكون حذرا . ولعل الحماس الذي كان يهز مشاعر المثقفين الجزائريين في الأيام الأولى للاستقلال هو الذي كان وراء حضور الثورة في الخطاب الروائي الجزائري وإن كان ذلك الحضور يتفاوت من كاتب إلى آخر .

والمتتبع لروايات مرحلة التأسيس يلاحظ مدى تركيزها على الصراع بين الأنا الوطني والآخر المستعمر . وهي حقيقة تاريخية أوجدها ذلك الاحتقان العدائي للآخر الفرنسي، بسبب تسلطه وهمجيته، وعمله طيلة قرن ونيف على تحطيم الهوية الوطنية بكل الوسائل بما في ذلك استعمال العنف المسلح ، فالآخر المستعمر بدأ يعمل من البداية على تجريد الأنا الوطني من رموز هويته . يقول ألفريد رامبو الذي كان وزيرا للتعليم عام 1897 (يجب أن نضمن السيطرة للغتنا ، وأن تدخل في أذهان المسلمين الفكرة التي نحملها نحن أنفسنا عن فرنسا ودورها في العالم ، وأن نحل محل الجهل والأفكار المسبقة المنغلقة ، المفاهيم المدققة للعلم الأوروبي)5 بهذا الأسلوب القهري القمعي المتعالي حاول الآخر المستعمر الفرنسي أن يمحو هوية الأنا الوطني الجزائري من أجل نشر ثقافته ، وتكريس هويته الاستعمارية . ولكن تلك الشراسة الاستعمارية كانت في المقابل عاملا مساعدا للأنا الوطني ليتحصن أكثر بهويته ويدافع عنها بكل

ما يملكك . فالتصرفات الاستعمارية الظالمة كانت سببا في تفجير الطاقة الثورية لدى الآنا الوطني، ودفعته دفعا إلى المواجهة والثورة .

تجليات ثورة التحرير في الخطاب الروائي الجزائري :

الحديث عن الثورة معناه الحديث عن ماضي هذه الأمة ،وما تعرضت له من أحداث في مسارات تاريخها المعاصر، وما قدمته من تضحيات جسام من أجل نيل حريتها . ومن هنا فتناول الرواية للثورة معناه الوقوف على بعض محطات تاريخ الأمة الجزائرية . ولكن المعروف عن الرواية الجزائرية أنها لم تعاصر الثورة كما عاصرها الشعر، ولهذا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : كيف تعاملت الرواية الجزائرية مع أحداث الثورة فنيا ؟

إذا كان الكل يعلم بأن الرواية الجزائرية قد ظهرت متأخرة أي بعد الاستقلال بسنوات، فإنها قد ولدت شديدة الارتباط بأحداثها، فطيف الثورة لم يفارق الكثير من النصوص الروائية الجزائرية، وإن اختلف كتابها في التعامل معها، كل حسب الأيديولوجية التي يؤمن بها . ولا يعني ذلك أن من بينهم من يشكك في جهاد رجالات الثورة أو نزاهتهم، أو يحاول تشويه انتصارات الشعب على عدوه، وإنما الكل يتفق على عظمة الثورة وتمجيد بطولة رجالاتها . وذلك راجع لأن الواقع الاجتماعي في الجزائر بعد اندحار المستعمر الفرنسي، كان يحتم على المبدع أن يلتفت إلى تلك الملحمة التي كتبها الشعب الجزائري بدماء أبنائه أثناء ثورة التحرير، فكان حضور الثورة كثيفا في روايات التأسيس الأولى . فقد عمل بعض الروائيين على تقديم أحداث الثورة من أجل تشريح وضع المجتمع الجزائري أيام الحكم الاستعماري، وفي نفس الوقت إظهار بطولات الشعب في مقاومة للاستعمار الفرنسي، والانتصار التي حققها. (ولا شك أن اختيار الكتابة عن فترة الاستعمار يعتبر عملا مشروعا ومن حق أي مبدع روائي، ولكن الذي يهم هو طبيعة الرؤية لهذه المرحلة التاريخية وطبيعة المواقف والرؤى التي يتخذها أو يتصورها كل روائي من القضايا الفكرية والاجتماعية لتلك الفترة .)[6]

كما أنه لا يمكننا أن ننسى من جهة أخرى، أن التأسيس الفعلي للرواية الجزائرية قد صادف تغيرات اجتماعية وثقافية جذرية أفرزتها مرحلة ما بعد رحيل الاستعمار الفرنسي، وهي فترة ساد فيها التوجه الاشتراكي مما جعل النصوص الروائية التأسيسية الأولى تغرق في الهم الاجتماعي والصراعات الأيديولوجية التي عرفتها الثورة بين التيار الوطني المتمسك بالقيم العربية الإسلامية، والتيار المتشبع بالفكر الماركسي . (لقد وجد الكاتب الجزائري نفسه بين فكي كماشة : صورة الماضي القريب وصدمات الواقع المتحول، فكان يلتفت إلى الماضي ليستحضر حرب التحرير يسائلها طورا ويتلذذ بذكراها أطوارا ،وهو في ذلك يحن إلى ماض مجيد يستأنس به وقد يوظفه لنقد الواقع، وقد يقحمه فيأتي امتدادا للخطاب السياسي الرسمي الذي جعل من التراث الوطني شعارا لتكريس الشرعية التاريخية والمحافظة على السلطة .)[7] وقد تولد عن ذلك أن أصبح النص الروائي الجزائري يعايش زمنين في وقت واحد، زمن

الثورة، وزمن التغيرات الاجتماعية التي يعايشها لحظة ظهوره للوجود . وقد حاول الروائي الجزائري أن يوفق بين الثورة وبين وجهة نظره الأيديولوجية، ولكن الثابت هو أن بقيت الثورة (هي المرجعية الأيديولوجية والفنية التي ينطلق منها أغلب الروائيين الجزائريين)[8]

وقد ساعد تبني الاتجاه الواقعي من طرف الروائيين الجزائريين، في مقاربة الوقائع التاريخية، وهو ما جعل النص الروائي، يرتبط بالواقع خارج نصي، أكثر من الجمالية النصية . وتبني المبدع لتلك الإستراتيجية، كان من أجل توثيق الأحداث التاريخية للثورة، بمعنى نقل حقائق ثابتة عن مقاومة الشعب من أجل إقناع المتلقي، واستدراجه لتتبع الأحداث التي تسرد عليه . (إن الحركة الأدبية في الجزائر ارتبطت بالتحولات السياسية منذ نشأتها، فلا غرابة أن ترتسم هذه التحولات في سائر الأعمال وأن يتقدم المضمون إلى الواجهة حتى لكأن المضمون في انعكاسه على صفحات العمل الأدبي يعكس نية جعله جسرا للعبور إلى شاطئ الأدبي وخاصة ما يتعلق منه بحرب التحرير أو بالخطاب الاشتراكي .)[9]

ويمكن للذي يطلع على الرواية الجزائرية التي تناولت أحداث الثورة أن يقسمها من ناحية تناول فضاء الأحداث إلى قسمين :

القسم الأول : الروايات التي ركزت على فضاء الريف من أجل إظهار دور سكان الريف في الثورة . كرواية اللاز للطاهر وطار . ورواية على جبال الظهرة لمحمد ساري .ورواية هموم الزمن الفلاقي لمحمد مفلاح . ورواية حورية لمحمد مليس .وغيرها من الروايات .

القسم الثاني : الروايات التي ركزت على فضاء المدينة من أجل إظهار دور أهل المدن في الثورة . كرواية طيور في الظهيرة لمرزاق بقطاش . ورواية نار ونور لعبد المالك مرتاض . ورواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي .وغيرها من الروايات .

أما من ناحية المواقف الأيديولوجية فيمكن الوقوف على موقفين :

الموقف الأول : وهو موقف مرتبط بالأيديولوجية الوطنية والمتشبث بالعروبة والإسلام وهو موقف قادة الثورة .

والموقف الثاني : وهو الموقف المتشبع بالأفكار الماركسية وهو موقف مضاد للموقف الأول . وأصحاب هذا الموقف كان نقدهم لقادة الثورة واضحا، فقد رصد أصحاب هذا الموقف كل ما كان يشوب الثورة من اختلافات وتصفيات، وبثوا ذلك في بعض نصوصهم الروائية .

وكما هو معروف أن الثورة التحرير الجزائرية كان لها تأثيرها العالمي وإن كان (هناك من أعدائها في الداخل والخارج من يريد أن يطمس معالمها ويضعف من أثرها ويجعل منها مجرد معركة تحريرية انتهت بتحقيق الاستقلال في حين يعطى الحق لثورات أخرى أن يحتفل بها ولو مر عليها قرن أو قرنان من الزمان، كأنما الثورات في العالم مقصورة

على فئة معينة أو شعبا خاصا وليست حقا مشاعا لكل المظلومين أو المؤمنين بالتغيير والباحثين عن الحرية والعدل والسلام بصرف النظر عن الجنس والعقيدة والأرض والانتماء)[10] وإذا كان الروائي الجزائري لم يعايش الثورة، فكيف كان تناوله لها، ومن أي وجهة تناولها ؟ هناك تباين واضح بين النصوص التي تناولت الثورة ، فمنها المادح ومنها الناقد، ومنها البين بين، وذلك أمر طبيعي فكل موقفه من أحداثها ولكل رأيه فيها .

من روايات الأولى التي تناولت الثورة [رواية اللاز للطاهر وطار] وتعد هذه الرواية من أكثر الروايات الجزائرية التصاقا بأحداث الثورة . وقد حاول الكاتب من خلالها أن ينقل للمتلقي مقاومة أهل الريف لجيش المستعمر الفرنسي، وكذا معارك جيش التحرير، ولذلك ،(جاءت " اللاز " كانجاز فني جريء وضخم، يطرح بكل واقعية، وموضوعية، قضية الثورة الوطنية)[11] ولكن من وجهة نظر خاصة بالكاتب، بحيث عمل على تصنيف شخصيات الرواية تبعا لتوجهاتهم الأيديولوجية، فـــ(قد جاء تصوير اللاز للثورة الجزائرية من الداخل ينم على معايشة الروائي اليومية ووعيه السياسي والاجتماعي لأحداث الثورة الجزائرية وأزماتها ومشكلاتها وخلافاتها التنظيمية .)[12] وتقديم رجالات الثورة على شاكلة شخوص الرواية قد يحدث قلقا لدى المتلقي، حين تصدمه تلك الصراعات الهامشية التي حاول الكاتب بثها داخل نصه، قصد إظهار تعصب بعض شخصيات الثورة لوجهات نظرهم، وتقديمهم المصلحة الحزبية على حساب الثورة، والتي لم يكن دافعها الثورة، وإنما كان دافعها التعصب الأيديولوجي، والذي لا علاقة له بالثورة . فهي رواية تحاول أن تكشف من خلال أحداثها عن ذلك الصراع الخفي الذي كان يدور بين رجالات الثورة، ويطرح ذلك الصراع من خلال أيديولوجيتين متضادتين : أيديولوجية دينية إسلامية، وأيديولوجية ماركسية شيوعية . وهو بذلك تحاول أن تلفت الانتباه إلى أمر هام في سجل الثورة، وهو الصراع الأيديولوجي . ولكن الشيء الايجابي في الرواية، وهو إظهارها لمقاومة سكان الريف للمستعمر، ودورهم القوي في إنجاح الثورة، على الرغم من القهر والحرمان والظلم الذي سلط عليهم .

فالروائي وهو يتناول الثورة يحاول أن يقبض على بعض المشاهد الحية منها وفق وجهة نظره وموقفه منها . أي القبض على لحظة تاريخية حية ومتميزة من بين أحداث الثورة .وعليه فالنص الذي يرتبط بتاريخ الأمة هو نص حي مدى الأزمان مهما كانت بلاغته، لأنه يستمد حضوره من حضور تاريخ الأمة التي يتحدث عنها محاولا رصد جهادها وبطولات أبنائها .

وعلى كل فالأعمال الأدبية التي كتبت عن الثورة لا ترقى إلى مستوى الثورة وهذا الرأي لا يعني انتقاصا من تلك الأعمال وإنما هو الحقيقة التي يجب أن تقال .لأن من كتبوا هذه الأعمال لم يعايشوا الثورة فعلا وإنما شعوريا .

وما يلاحظ من نقد لرجالات الثورة في بعض النصوص الروائية راجع لما رصده الروائي الجزائري من سلبيات حدثت بعد الاستقلال، فالكثير من الآمال لم تتحقق، مما شوه الثورة في نظر الأجيال التي ولدت بعد الاستقلال . كل ذلك دفع ببعض الكتاب إلى إظهار تلك التناقضات التي حدثت أثناء الثورة والاختلافات الأيديولوجية التي كانت

تعصف بها، والتي أدت في بعض الأحيان إلى المواجهة المسلحة بين رفقاء السلاح . ومهما قيل عن ذلك فإن صورة الثورة الجزائرية تنعكس في الخطاب الروائي الجزائري من خلال بطولات المجاهدين والفدائيين والمسبلين، بذلك تحدث حركة داخل مسارات السرد في النص وتضفي عليه جمالية نصية. وما يلفت النظر أن جل النصوص الروائية التي تناولت الثورة بطريقة أو بأخرى تلتقي في تلك المشاهد الحية للثورة .وهي مشاهد تعبر عن لحظة زمنية ستبقى حاضرة في الذاكرة الجماعية للأمة الجزائرية لأنها تمس جزء من تاريخها المشرق .وقد كان التركيز في تلك المشاهد على مشاهد المعارك، ومشاهد السجون والتعذيب .

مشاهد المعارك :

ليس هناك من بين الروايات الجزائرية التي اطلعنا عليها رواية تتناول مسار الثورة كرونولوجيا من بدايتها إلى نهايتها وإنما هناك مشاهد متنوعة تكشف عن بطولات الفرد الجزائري في مواجهته للآخر الفرنسي ومن يتعاون معه .فالذي يطلع على الرواية الجزائرية يجد في بعض نصوصها بعض المشاهد التي تتحدث عن المعارك التي كان يخوضها المجاهدون ضد الجيش الفرنسي مثل ما يقف عليه المتلقي في رواية [على جبال الظهرة] لمحمد ساري مثل المشهد التالي (ما زالت نيران الحرب مشتعلة بل هي في أشد اضطرامها وليست رداءة الطقس هي التي تؤخر المجاهدين أو تمنعهم من الاستمرار في المقاومة لتحرير الأرض .)[13] فالكاتب يريد أن يظهر بسالة وشجاعة المجاهد الذي يتحدى الاستعمار ويتحدى الطبيعة ولا شيء يعيقه . وقصده من وراء ذلك القول بأن الثورة الجزائرية قد حطمت أسطورة القوة الاستعمارية المتمثلة في القوة العسكرية والتي البعض يضن بأنها لا تقهر، كما الثورة حطمت أسطورة الاستيطان المتمثل في فكرة الجزائر فرنسية .ولتوضيح المشهد أكثر يضيف صاحب الرواية قائلا (كانت هزيمة الجيش الفرنسي شنعاء . فجئ بغتة في الظلام برصاص من كل الجوانب، ينثال عليه كالصاعقة . استمرت المعركة حوالي ساعتين قبل الشروق مع غبش الليل، ثم انسحب المجاهدون، خوفا من طيارات العدو . عندما ظهرت الشمس، لم يبق في الميدان إلا الشاحنات المحطمة والموتى والجرحى والعساكر الذين سلموا . إلى حد الآن لم لا أعرف بالضبط كم استشهد من إخواننا .)[14]

فمن خلال الفعل الثوري للذوات تتجلى الثورة بكل مشاهدها وصورها ونبض أحداثها للمتلقي، فالروائي ومن خلال عالمه التخييلي الفني يحاول أن يجعل المتلقي يلامس أحداث الثورة عن طريق تلك المشاهد التي يقدمها له والتي تتجلى فيها بطولة الأنا الوطني بصورة تتجاوز في بعض الأحيان الحقيقة إلى الأسطورة .فمشاهد انتصارات المجاهدين في المعارك تثير حماس الفرد الجزائري، وتعطي صورة مشرقة عن نضاله وصموده في وجه أعتا قوى استعمارية عرفت في القرن الماضي .

مشاهد السجون والتعذيب :

ومن المشاهد التي تتجلى من خلالها ثورة التحرير مشاهد التعذيب، فالمستعمر الفرنسي كان يضن بأنه عن طريق القسوة والقهر والتعذيب سيقهر إرادة الشعب الجزائري ويخضعه لسيطرته، ولكن كان العكس فكلما زاد المستعمر من بطشه كلما زادت إرادة المقاومة عند الشعب الجزائري، وقد قدمت الرواية الجزائرية مشاهد حية عن ما كان يتعرض له الشعب الجزائري من تعذيب تجاوز كل وصف، مثل ما يقف عليه المتلقي في رواية [على جبال الظهرة] من مثل (مشؤوم ذلك اليوم الأول الذي ذقت فيه العذاب ... ربطوني بحبل نيلون إلى الشباك الحديدي ويداي تقطران بالدماء ... كم كانت تؤلمني ... أشعر بها حتى الآن ... بصق على وجهي ذلك العسكري العملاق ... اشعر بها أكثر من كل العذاب الذي ذقته، كأنني مزبلة ... جاءوا بالملاقط التي يسري فيها التيار الكهربائي، ملاقط صغيرة، مسننة من فلاذ لماع ووضعوا ملقطا في شحمة أذني اليمنى وملقطا في ابهام يدي اليسرى، وجاء التيار الكهربائي كالصاعقة نزلت من السماء في ليلة دامسة، ممطرة والرعد والبرق يدويان . وثبت دفعة واحدة وصرخت بكل جوارحي، لم أعرف من الوهلة الأولى ماذا أصابني ... وجدت حسمي يرتعش وانفلت مني زعيق مريع . أحسست بثقل رأسي . أوقفوا التيار، وجاء صوت أحدهم، مظلي بلباسه الكئيب .(تكلم أيها الحيوان ...) دوي أجش، أيقظني من الغفاء الذي ملكني .أتذكر جيدا تلك النظرة التي حدقته بها نظرة قاتلة مملوءة بالانتقام والاستياء والثورة .)[15] فالسارد في المشهد السابق يضع المتلقي أمام لحظة من لحظات التعذيب ليظهر ما كان يتعرض له الفرد الجزائري على يد أفراد الجيش الفرنسي .وفي نفس الوقت يظهر شجاعة وصمود ذلك الفرد أمام كل أنواع التعذيب والقهر والإذلال فهو يقدم صورة مشرفة للأنا الوطني قد يحتفظ بها التاريخ عبر الأزمان وهي صورة تشرف الإنسانية المناهضة للاستعمار وكل أشكال التعذيب . فالمشهد السابق من مشاهد التعذيب هو مرجع لمشاهد عدة مورس فيها التعذيب الهمجي بكل أشكاله على الثوار، مجاهدين ومسبلين وفدائيين ومن عامة الشعب . (لم يكن المستعمر يعمل على تزييف الوعي الشعبي بانتماءاته الفكرية والتاريخية والجغرافية فقط، بل سعى إلى تصفية الإنسان باعتباره بنية جسدية يمكن أن تكون أداة نضال ومقاومة .)[16] فالجلاد يحاول بكل أساليبه في التعذيب أن يشل القدرة الفكرية والجسدية التي تمكن الفرد الجزائري من مقاومة ورفض الاستعمار .

والسارد عندما يتحدث عن أشكال التعذيب الهمجي التي تعرض لها الأنا الوطني على يد جلاديه من الجيش الفرنسي، هو في حقيقة الأمر يتحدث عن حقائق تاريخية موثقة وليست من افتراضات خياله .فهو ينقل للمتلقي أنواعا من مشاهد التعذيب، ليظهر له كيف كانت تنتهك حرمة جسد الإنسان من طرف الجلادين بدون رحمة أو شفقة . (لم أكن أرى أحدا، أحيانا حينما أساق إلى الزنزانة، التقي بسجين، جاء ليقوم بدوري في تلقي العذاب، لكنني دائما عند العودة، أكون في حالة لا تسمح لي بالتعرف على وجهه، اشعر بنظراته اليائسة تحدقني رثاء لحالي ولحاله معا .)[17] إذن فكلما زاد الجلاد في درجة التعذيب، كلما قويت إرادة الفرد الجزائري في مواجهة ذلك

(واستمروا على استنطاقه بذلك الأسلوب الجهنمي الوحشي . كل يوم كان يلاقي على يد هؤلاء الجلادين مر العذاب .كل يوم كانوا يبتكرون نوعا من العذاب . مرة يذيقونه السوط، وطورا يجربون عليه (عملية الزجاجة) . ومرة أخرى يضربون عضوه التناسلي بالتيار الكهربائي، زيادة على الجوع والعطش، حيث أنهم كانوا لا يمكنونه إلا من طعام قليل يمسك الرمق فقط)[18]

ومن الروايات التي اهتمت بنقل مشاهد التعذيب رواية نتوءات البحر لعزي بوخالفة والتي تناول في مضمونها مشاهد من ثورة التحرير محاولة رصد ما كان يتعرض له السجناء أيام الثورة من تعذيب وحشي يتعدى الوصف، وفي المقابل يكشف عن صمود الفرد الجزائري أمام كل أصناف التعذيب، وهي رواية يمكن تصنيفها ضمن ما يسمى بأدب السجون .فهي من بدايتها، وإلى نهايتها تدور حول ما كان يدور في سجون الاستعمار الفرنسي من أصناف التعذيب، وانتهاك لإنسانية الإنسان أيام ثورة التحرير . والسارد في هذه الرواية يظهر مدى بشاعة السجن كمكان تنعدم فيه روح الإنسانية، ويفقد فيه الإنسان حريته وكرامته وإنسانيته، ويصبح كتلة لحم في يد السجان يمارس عليها ساديته وهو يتلذذ بألمها ونزيف جراحها .فـــ(في السجن كل شيء يعرض أمام أعين الجلاد وسياطه .فالجسد هو الممر إلى نفسية الضحية وهو الموضوع الذي يمارس عليها الجلاد ساديته)[19] ومن هنا فالعمل الروائي كعمل تخييلي يمكنه أن يرصد بعض الحقائق التي عايشها إنسان في حياته ،أو عرفها شعب من الشعوب .

إذن فالسارد في هذه الرواية يحاول أن يقدم بعض الحقائق المؤلمة ليعطي صورة واضحة عن بشاعة المستعمر الفرنسي ، من خلال الكشف عن أصناف التعذيب التي كان يتعرض لها الفرد الجزائري في تلك السجون، التي أقامها المستعمر خصيصا لقهر إرادة الشعب الثائر، وسد الطريق أمام تحقيق حريته .

فالنص يقدم مشاهد مرعبة عن ما كان يتعرض له الفرد من تعذيب وإهانة لإنسانيته في سجون ومعتقلات المستعمر أيام ثورة التحرير، كما يكشف في نفس الوقت عن تلك الصورة المشرقة لصمود الفرد الجزائري وصبره أمام كل أشكال التعذيب والإذلال والقهر، ومحاولة محو شخصيته الإنسانية . (الجرح يمتد .. يتوسع في أعماق .. يمتد امتداد البصر . شجرة شوكية متوحشة .. غريبة، تمتد فروعها الشائكة في جرحك وتمتص دمك بلا شفقة .. تنمو بكبرياء ـــ تنمو كلما ازداد ألمك)[20] فالنص يكشف عن ألم الذات الوطنية ومعاناتها وصبرها وتحملها وإصرارها على الصمود والتحدي، حتى تتمكن من قهر الألم وهزيمة الجلاد . وفي المقابل يظهر مدى قسوة المستعمر وحقده وتجبره، ووحشية جنوده، فهم لا يختلفون عن الحيوانات المفترسة المتعطشة لدم الآخرين ولحومهم . وعلى كل فإنه ونظرا لأن النص الروائي الجزائري ولد متأخرا عن أحداث الثورة، ونظرا لأن جل كتاب الرواية الجزائرية هم من جيل ما بعد الاستقلال، فإن تناوله للثورة الجزائرية جاء دون المستوى المطلوب، مما يجعلنا نذهب إلى أن الخطاب الروائي الجزائري لم يتمكن من إعطاء صورة تشرف الثورة وتعطيها بعدها الثوري والإنساني في العالم . و(النتيجة التي نتوصل إليها هي أن الأدب الروائي، حاول وقد استطاع في الكثير من نماذجه تغطية منجزات الثورة الوطنية، حتى ولو جاء ذلك متأخرا، وأن الاختلافات المطروحة حول كيفية هذه التغطية ترجع أساسا إلى التوجهات الفكرية والجمالية لدى كل أديب على حدة، بالإضافة إلى التناقضات التي أفرزتها هذه الثورة)[21]

وخلاصة القول أن الأديب الجزائري حاول أن يقدم عملا جليلا، يكون في مستوى ثورة شعبه العظيمة، إلا الواقع يظهره أن ما قدمه كان دون مستوى عظمة الثورة، ومهما كان المستوى الذي بلغه هذا الأدب فإنه قد : 1ـــ كشف عن صمود الشعب الجزائري في وجه القوة الاستعمارية بصورة رائعة تدعوا إلى الاعتزاز والافتخار .

2ـــ أنه كشف عن صورة رائعة لبطولات المجاهدين والفدائيين والمسبلين وكذا الشعب الجزائري .

3ـــ أنه كشف عن تلك الأساليب القمعية الجهنمية التي استعملها جنود المستعمر في تعذيب المجاهدين وكل من له علاقة بالثورة .

4ـــ أنه كشف عن مخططات المستعمر، والتي حاول من خلالها إبعاد الشعب الجزائري عن ثورته . والمتمثل في إدعائه بأن الثوار هم لصوص وقطاع وطرق خارجون عن القانون .

5ـــ أنه كشف عن ما كان يتعرض له الشعب الجزائري من قمع وإبادة وإذلال وإهانة، في السجون، وفي القرى والمدن والمحتشدات.

المصادر والمراجع :

الروايات :

1 – الطاهر وطار رواية اللاز الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط3 .

2 – محمد مفلاح رواية هموم الزمن الفلاقي .

3 – محمد مليس رواية حورية

4 – مرزاق بقطاش رواية طيور في الظهيرة .

5 – عبد المالك مرتاض رواية نار ونور

6 – زهور ونيسي رواية جسر للبوح وآخر للحنين

7 – محمد ساري رواية على جبال الظهرة المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.

8 – علال عثمان رواية الانتفاضة الكبرى المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 الجزائر .

9 – عزي بوخالفة نتوءات البحر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .

10 – محمد المعراجي شوك الأسى . المؤسسة الوطنية للكتاب 1989

11 – عبد العزيز غرمول مقامة ليلية .الجمعية الوطنية للمبدعين ط1993/1

12 – علال عثمان الانتفاضة الكبرى . المؤسسة الوطنية للكتاب 1985

13 – جيلالي خلاص بحر بلا نوارس. منشورات دحلب ط1998/1

14 – مرزاق بقطاش البزاة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983

15 – محمود بن مريومة الإقامة في المناطق الممنوعة . المؤسسة الوطنية للكتاب 1986

16 – بوجادي علاوة عين الحجر . المؤسسة الوطنية للكتاب 1988

المراجع :

1– عبد الله الركيبي الشعر في زمن الحرية ديوان المطبوعات الجامعية .

2 – أحمد محمد عطية البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة وزارة الثقافة السورية 1977 .

3 – مصطفى بيطام الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1998 .

4 – وسيني الأعرج اتجاهات الرواية العربية في الجزائر .

5 – بشير بويجرة الزمان في الرواية الجزائرية الحديثة مخطوط دكتوراه دولة جامعة وهران .

6 – محمود أمين العالم وآخرون الرواية العربية بين الواقع والأيديولوجية دار الحوار ط1986/1 سورية .

7 – طه وادي الرواية والسياسة دار النشر للجامعات المصرية ط96/1 .

8 – سعيد بنكراد السرد الروائي وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط2008/1 .

9 – سعيد علوش الرواية والأيديولوجية دار الكلمة للنشر ط1983/2 بيروت .

10 – محمد نور أفاية الهوية والاختلاف إفريقيا الشرق المغرب .

11 عزت عمر توجهات الخطاب السردي في الرواية الإماراتية والعربية المعاصرة (قراءات تحليلية) دائرة الثقافة والإعلام حكومة الشارقة ط2003/1

12 – لحمداني حميد الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دار الثقافة ط1985/1 .

13 – مخلوف عامر توظيف التراث في الرواية الجزائرية (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية) منشورات دار الأديب ط1 وهران.

14 – علال سنقوقة المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية منشورات الاختلاف ط2000/1

15 – سعيد بنكراد السرد الروائي وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط2008/1 الدار البيضاء .

16 – محمد الميلي وضع العربية خلال العهد الاستعماري مجلة اللغة العربية عدد ممتاز2005 .

17- رضوان عاشور الروائي والتاريخ مجلة الطريق عدد3/1981 .

الهوامش :

1 – وسيني الأعرج اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ص17

2 – وسيني الأعرج اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ص

3 – بشير بويجرة الزمان في الرواية الجزائرية الحديثة مخطوط دكتوراه دولة جامعة وهران ص 328 .

4 – سعيد علوش الرواية والأيديولوجية دار الكلمة للنشر ط2/1983 بيروت ص 25 .

5 – محمد الميلي وضع العربية خلال العهد الاستعماري مجلة اللغة العربية عدد ممتاز2005 ص48 .

6 – لحمداني حميد الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دار الثقافة ط1/1985 ص 532 .

7 – مخلوف عامر توظيف التراث في الرواية الجزائرية (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية) منشورات دار الأديب ط1 وهران. ص.26

8 – علال سنقوقة المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية منشورات الاختلاف ط1/2000ص 48 .

9 – مخلوف عامر توظيف التراث في الرواية الجزائرية ص27.

10 – عبد الله الركيبي الشعر في زمن الحرية ديوان المطبوعات الجامعية ص11/10 .

11 – وسيني الأعرج اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ص90 .

12 – البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ص .254

13 – محمد ساري رواية على جبال الظهرة المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 7 .

14 – رواية على جبال الظهرة ص25 .

15 – رواية على جبال الظهرة ص37/36 .

16 – علال سنقوقة المتخيل والسلطة ص .100

17 – رواية على جبال الظهرة ص38 .

18 – علال عثمان رواية الإنتفاضة الكبرى المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 الجزائر ص86./85

19 – سعيد بنكراد السرد الروائي وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط1/2008 الدار البيضاء ص 220

20 – عزي بوخالفة نتوءات البحر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 5 .

21 – اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ص 95.